العالم المسرحي والسينمائي

الدرامة والحياة

لناقد « الرسالة » الفني

من الجلي الواضح اننا قبل أن نطرق بحثاً كهذا(١) ، علينا أن نتريث برهة نسائل فيها أنفسنا ماذا نعنيه تماما بكلمة «درامة» - أو بمعنى آخر ، ما هو التعريف الذي نستطيع أن نعد لفن الدرامة اذا ما قورن بالفنون الاخرى كالشعر والتصوير والقصص ؟ من الواضح أن الدرامة فن ، ولكن أي القيود نستطيع بها أن نحدد صفاته الخاصة التي تميزه عن الفنون الأخرى ؟ ولقد يبدو هذا عند النظرة الاولى سهلا ميسورا ومطلبا هينا لا عسر فيه ولا عناء ، ولكن قليلا من التفكير يكشف لنا عن الصعاب التي تواجهنا ، وقد يكون من الخير لنقدر دقة هذا المطلب العسير أن نرجع خطوة أو خطوات الى الوراء فنمر سراعا عاجلين بتلك المحاولات التي بذلها أقطاب هذا الفن في تاريخه الطويل ليجيبوا عن هذا السؤال وليضعوا لفن الدرامة تعريفا واضحا وصريحا .

من أولى النظريات التي وضعت في هذا الصدد ومن أكثرها أذيوعا وانتشارا ، تلك النظرية التي نستطيع أن نسميها «نظرية التقليد» و المحاكاة . ولعل من الخير أن نذكرها في أبسط صورها كما جاءت في أقوال «شيشرون» الخطيب الروماني المعروف «فالدرامة عنده (نسخة للحياة ، مرآة للعادات ، انعكاس للحقيقة) وهذا التعريف ، اذا صح أن نسميه كذلك ، قال به كثير من النقاد المتعاقبين مئات من السنين ، واتخذ أساسا لابحاث فنية لا عد لها ، خصوصا في عصر النهضة «رنيسانس» . بل لقد وجد حتى في العصور الأخيرة أنصارا وأشياعا لانه يتمشى مع اغراض الكتاب الواقعيين «ريالست» في القرن التاسع عشر .

ومن انصار هذه النظرية في تعريف الدرامة زولا الكاتب الفرنسي المعروف وبومارشيه رجل المسرح الشهير . ومن المقدمة التي وضعها الاول لروايته «تيريس راكوين» ومن كتاب الثاني عن الفن المسرحي نستطيع أن نستخلص الكثير من العبارات التي ندلل بها

(١) للاستاذ الرديس نيكولا استاذ آداب اللغة الانجليزية في جامعة لندن بحث مسهب في هذا الموضوع وقد رجعنا اليه في هذه الكلمة

والحوت له المحل الثاني في جدول اسماك العالم الاقتصادية أما المحل الاول فلسمك الرنكة المعروف بالرنجة Herring ، ولا نراه في مصر الا مملحا أو مدخنا .

وقد بدأ القلق يظهر خشية على الحوت والرنكة وغيرهما من الاسماك أن تنفد من المحيطات وذلك لامعان الانسان في اصطيادها ولتحسن العدة التي يستخدمها في ذلك ، فهو بتحسنها يأتي بالمحصول الأكثر لقاء مجهود أقل وزمن أقصر . وهم يحاولون اتقاء هذا باعلاق المصايد أحيانا ، وبانشاء المرابي الصناعية أحيانا أخرى . ويظهر أن الطريقة الأولى هي الوحيدة الناجعة ، إذ لا بد من أن يتباطأ الصيد حتى يتمشى مع سرعة إنسال السمك فلا يصيد الانسان غير المزيد . أما الطريقة الثانية فتقليد للطبيعة عسير ، وقد دلت التجارب على أن تلك المرابي يأتي أكبرها في العام من الخلف بالمقدار الذي يأتيه بضع مئات فقط من الحوت الطليق في المحيط .

ومصر ، مصر الواقعة جنوب البحر الابيض ؛ وغرب البحر الاحمر ، وكلاهما مزرعتان تناهضان في أمل الثراء ضياع الدلتا والصعيد ، مادخلها مما أحاطها الله من بحاره ؟ لاأدري . انما الذي أدريه أنها في يوم عيدها القومي تأكل سمك البكلاه ، وهو لا ينزوع في بحرها الابيض ، انما يأتي من أصقاع بعيدة نائية

احمد زكي

على أن المثل الاعلى للمسرح عند الاثنين ان يكون « مرآة الحقيقة وصورة مطابقة لمافى الحياة »

فاذا أخذنا بهذا الرأى وبحرفيته قلنا أن الدرامة اقتباس من الحياة . وهذا معناه أن المؤلف المسرحى الحق يجب أن يضع نصب عينيه أن يكتب لنا مشاهد للمسرح تطابق قدر المستطاع مايحدث فى الحياة أو يمكن حدوثه فيها حتى لنجىء هذه المشاهد كالصور وخيالها فى المرآة او كالنسخ المتعددة المتطابقة للشىء الواحد . وتكون محاورات ابطال الرواية ألأروع والأعجل اذا كانت تنقل لنا نفس الحديث ، بل الكلمات والالفاظ للحوار الذى يقع بين الاحياء كما ينقله الحاكى دون نقص او زيادة ، ويكون أجمل ما فى الرواية صدقها وأمانتها للحقيقة .

واذا نظرنا الى هذه الآراء فى مجملها قد نغرى بأن نصدق ان ثمة مايمكن ان يقال للدفاع عنها أو تاييدها ، ولكن لو فكرنا قليلا لتبين لنا زيفها وخطؤها . وبغض النظر عما إذا كان فى مقدور المرء ان يعتبر أن المؤلف المسرحى ليس اكثر من حاكى يسجل ما يسمع ويعمله حرفيا الى المسرح ، فانه من السهل ان نتبين ان هذا المثل الاعلى للدرامة مستحيل لان الرواية المسرحية لايمكن ان تكون صورة مطابقة تمام المطابقة للحياة . وحتى اذا فرضنا ان المؤلف فى أحد مشاهد روايته نقل نفس الالفاظ التى تحدث بها فعلا الاشخاص الذين اتخذهم كنماذج لأبطاله ، فان الحقيقة الواقعة من ان هذا المشهد فصل عما سبقه أو تلاه من المشاهد الاخرى تجعله شيئا صناعيا محضا ، أو بمعنى آخر تكسبه الصبغة الفنية . واذا لم يستعين المؤلف بالآلات الميكانيكية المسجلة للأصوات ، فانه لا يستطيع ان يطمع فى نقل الحوار الذى دار فى الحياة الحقة بألفاظه وحروفه وتفصيلاته نقلا دقيقا غاية الدقة لاتحريف فيه . فاذا كان المؤلف هو الذى خلق المشهد وخلق أبطاله ، كما يحدث على الاغلب ، لكان من السخف ان نتخيل ان هذا المشهد لو انه حدث حقا فى الحياة ، لتحدث هؤلاء الابطال ، لو انهم أحياء من لحم ودم ، بنفس هذه الكلمات ، ولدار بينهم هذا الحوار دون زيادة أو نقص . فمطابقة الحياة فى الدرامة شىء مستحيل ومطلب عسير فاريا لزم الحق لاوجود له ، ثم هو بعد ذلك ليس من عمل الفنان ، لانه ليس من الفن . ولم يكن فى يوم من الأيام مطمح كبار الكتاب الخالدين بآثارهم المعروفة ، ولا المثل الاعلى الذى حاولوا تحقيقه بأعمالهم وكتاباتهم ونحن اذا أخذنا بهذه النظرية فى معناها الحرفى وحدودها الضيقة طرحنا من مكتبة الفن احسن مافيها من اعمال رجال الادب والمسرح وألقينا بمخلفات أشيل وارستفان وشاكسبير وموليير وأندادهم طعمة للنار .

فاذا أردنا أن نتحرر من هذا الحرج وأن نأخذ هذه النظرية ، نظرية التقليد أو المحاكاة ، بمعنى أوسع وأرحب ، كان لنا أن نعود إلى ارسطاطاليس الذى جعل أساس آرائه أن الفن فى مجمله ينطوى على عنصر التقليد ، وأظن أننا فى غنى أن ندخل فى بحث مستفيض فى هذا الصدد وحسبنا أن نقول أن أرسطاطاليس قد ذكر أن التقليد هو أصدق تمثيل للحقيقة إلا فى النادر القليل .

ومن المعروف ان النصوص التى وجدت ونسبت الى الفيلسوف اليونانى القديم والتى يتحدث فيها عن فن التراجيديا والشعر القصصى اتخذت مرجعا لرجال الفن ونقاده فى شتى العصور وكانت لها مكانة القداسة فى عصر النهضة وأطال مناقشتها وبحثها كثير من النقاد فى العصر الحديث . ومن الخير ان نلم بهذا كله قدر المستطاع وهو ماسنحاوله فى القريب العاجل ان شاء الله

ونعود الى بحثنا لنكرر ما قلناه فى اسطر سلفت من أن نظرية التقليد وجدت فى العصور الحديثة مشايعين وانصارا ولكن فى معناها الشامل الرحب ، وهناك فيكتور هوجو الذى قال فى المقدمة التى وضعها لرواية كرمويل « لقد قيل إن الدرامة مرآة تنعكس فيها الطبيعة . ولكن اذا كانت هذه المرآة عادية ، مسطحة لامعة ، فانها لا تقدم لنا إلا صورة ضئيلة للأشياء التى تعكسها دون أن تبرزها ، صورة صادقة ولكن لا روح فيها ، ومن المعروف أن اللون والضوء ينعدمان فى الانعكاس البسيط . فالدرامة على ذلك يجب أن تكون مرآة تتركز فيها المرئيات ، وبدلا من أن تضعفها تجمع الأشعة وتكثفها وتطغى عليها قوة التركيز فتجعل من القبس شعاعا ، ومن الشعاع لهيبا وهاجا ، وبهذا وحده تستحق الدرامة أن تكون فنا له خطره وقيمته »

وهذه العبارة فى وضوحها وقوتها لها أهميتها الكبرى فيما نحن بصدده ، وتتمشى معها كلة سارسيه من أكبر نقاد المسرح الفرنسى إذ يقول إن الطبيعة المجردة على المسرح لا تثير اهتمام الجمهور بل تبدو له فضلا عن ذلك مزيفة كاذبة . ويضيف فى رأيى أن الحقيقة اذا أظهرت على المسرح بصدق وأمانة بدت مزيفة للجمع الحاشد